محمد أبو زهرة
أستاذ الشريعة بكلية حقوق القاهرة

شريعة القرآن

من دلائل إعجازه

ربيع الأول ١٣٨١ هـ
سبتمبر ١٩٦١ م

سلسلة الثقافة الإسلامية
٣١

هذه السلسلة .. !

نحمد الله سبحانه . ونحن نبدأ المجموعة الرابعة مستمدين العون والتوفيق منه وحده . .

وبعـــد . . .

فقد ظللنا نصدر هذه السلسلة تباعاوفى كل شهر دون أن تتوقف ، ولم يكن لنا هدف سوى أن نؤدى واجبنا فى مجال الثقافة الإسلامية وسط هذا الزحام الشديد من الثقافات . . التى إما أن تخدم الجنس لإثارة الغرائز ، أو تخدم الأدب المسخر والمبادىء المستوردة لكسب المغانم .. ولم يكن للثقافة الإسلامية الخالصة مكان وسط هذا الخضم ، فأردنا أن يكون لهـا مكان ، ولا نزعم أننا أدينا واجبا كاملا ، فلم نزل فى بداية الطريق نواصل بذل الجهد والعرق ، ولتتخطى السلسلة العقبات الصلبة التى كثيراً ما تعترض طريقها .. لولا عناية الله وحده ..

ولقد شكا كثير من القراء صغر حجم السلسلة مما يضطر الكاتب إلى التركيز المبالغ فيه ، ولما كانت إمكانياتنا المادية لاتسمح بالتوسع ، فقد عزمنا على أن يصدر العدد كبيراً وافياً وفى كل شهرين تقريباً ، فتصبح المجموعة فى السنة ستة أعداد بدلا من عشرة . .

وأملنا أن يعيننا الله على أن نؤدى فى سبيل الفكرة الإسلامية واجباً . . .

وما ذلك عليه ببعيد . !

المشرف المسئول

واجب الوفاء

إن واجب الوفاء يحتم علينا أن نقدم شكرنا إلى الذين أسهموا معنا فى سلسلة الثقافة الإسلامية ، وكان لهم الفضـــل فى وجودها وبقائها :

• الأخ السيد/محمد نبهان ـــ سورابايا بأندونسيا ـــ الذى أمدها بماله قبل أن تخرج إلى الحياة .

• الأخ السيد/على الحريرى صاحب مطبعة دار الجهاد الذى صبر وصابر كثيراً إزاء إمكانياتنا المادية المتواضعة .

• الأخ السيد/قاسم الرجب صاحب مكتبة المثنى ببغداد الذى ثبت وجودها بتشجيعاته المتوالية .

• الأخوة الســادة : أصحاب مؤسسات الخانجى والشركة العربية ، ودار العروبة ووهبة بالقاهرة وغيرهم ، فهم المشجعون الدائمون الذين تعتمد السلسلة كثيراً عليهم .

• أما الإخوة الذين بذلوا كثيراً وأصروا على أن لا تذكر أسماؤهم . . فالله وحده يتولى مثوبتهم .

• وأما القراء والمشتركون المتجاوبون مع معانى الفكرة الإسلامية . فنسأل الله أن يتولى عنا جزاءهم .

والله الموفق ؟

العدد الحادى والثلاثون

لقد كتب العدد الأول من هذه السلسلة فضيلة أستاذنا الجليل الشيخ محمد أبو زهرة عن الوحدة الإسلامية. فكانت بداية طيبة وفاتحة خير ، ويشاء الله سبحانه أن يكتب فضيلته أيضا العدد الأول من المجموعة الرابعة عن « شريعة القرآن » ليضيف فضلا من أفضاله على هذه السلسلة الوليد . . التى أردناها خالصة لوجه الله وحده . .

وأستاذنا ليس بحاجة إلى التعريف بشخصه . . كعالم فى الطليعة من العلماء . الذين يعتزون بعلمهم ورأيهم ، ولا تتخلى عنهم شجاعة المؤمن الواثق بربه فى أحرج الأوقات .

وإذا لذّ لبعض علماء الدين فى البلاد الإسلامية اليوم أن يهون عليه ودينه وكرامته ، فيسخر دين الله للناس من أجل الحرص على منصب أو جاه ، أو بدافع من التزلف أو النفاق . . فإن العثور على العالم الدينى « الرجل » يعتبر ضرباً من المحال . . !

إن الأستاذ الشيخ « أبو زهرة » تقديراً كبيراً فى سائر البلاد الإسلامية ولم يمنحه هذا التقدير عليه وحسب ، بل رجولته أيضا ، فهو عالم « رجل » وما أندر اليوم . . العلماء الرجال . . !

محمد عبد الله السمان

تمهيد

١ — بعث الله كل نبي من الأنبياء بمعجزة تشده لها العقول ، وتقف عندها القدرة البشرية ، فتعجز عن الإتيان بمثلها ، وتحمل من أنار الله بصيرته على الإذعان والتسليم والإيمان والاطمئنان .

وكل معجزة تناسب العصر الذى بعث فيه النبي ، وتتفق مع ما تدركه عقولهم ، من حدود القدرة البشرية فى موضوع المعجزة وذاتها ، وقد تكون علاجا لحالهم .

فمعجزة موسى كانت فى بلد أتقن السحر ، فجاءت من جنسه . .

ومعجزة عيسى كانت فى قوم خضعوا لحكم المادة ، ولم يعترفوا بغيرها ، فجاءت معجزته عليه السلام متجهة كلها لإثبات ما وراء المادة . بل إن ولادته عليه السلام نفسها كانت من هذا النوع ، فهى وحدها برهان على سلطان الروح وتفكك الأسباب المادية وتراخيها عن مسبباتها ، ووجود تلك المسببات من غير قيام الأسباب .

٢ — ولقد كانت كل المعجزات التى حكيت عن النبيين السابقين

معجزات مادية حسية ، تكشف عن معنى روحى ، وعن تنزيل سماوى ؛ فقد كانت تقرالحس فيخضع ، وتبده العقول فتخنع ، فيذعن من أزال الله عن قلبه الغشاوة ، وينكر من غلبت عليه شقوته وعمّت كل نواحى نفسه ضلالته .

ولكن معجزة محمد — صلوات الله عليه — لم تكن مادة تقرع ، ولا أمراً حسياً ترى العيون إعجازه رأى العيان ، بل كانت أمراً معنوياً تتأمله العقول والأفهام ، وتتعرفه المدارك البشرية فى كل الأزمان ، ولم يفقد حجيته ، ولم يزل إعجازه كر الغداة ومر العشى .

٣ — وهنا يثور بادى الرأى ويلمح النظر سؤال :

ولماذا كانت معجزة محمد — صلوات الله عليه — أمراً معنوياً ، والمعجزات السابقة أموراً حسية ، أو لماذا كانت معجزة محمد كلاما متلوا ومعجزات غيره وقائع مادية ؟

إن الجواب عن ذلك السؤال مشتق من شريعة محمد ذاتها ، ومن حقيقة القرآن الكريم ؛ فشريعة محمد خالدة باقية ، خوطبت بها الأجيال من مبعثه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وقد خوطب بها الناس جميعاً فى كل الأرض ، مهما اختلفت أجناسهم وتباينت أقاليمهم ، وتضاربت عاداتهم .

فكان لابد أن تكون معجزة النبى متفقة مع هذا العموم ،

ومتلائمة مع هذا الخلود ، ولا يمكن أن تكون كذلك إذا كانت وقائع مادية تقتضى بانقضاء وقتها ، ولا يعلم بها علم اليقين إلا من عاينها ، فالنار التى ألقى فيها خليل الله إبراهيم ولم تحرقه ، لم يعلمها علم اليقين إلا الذين رأوها ، وعصا موسى التى انقلبت حية تسعى ، تلقف ما يأفكون ، لم يعلمها علما جازما إلا الذين شاهدوها ، وإبراء عيسى للأكمه والأبرص لم يعلم به إلا الذين لمسوه .

أما معجزة محمد فهى ذلك القرآن المتلو المشتمل على الشريعة المحكمة ، وهو باق يرى ويتلوى إلى يوم القيامة فيعلم حقيقته من التقى بالنبي صلوات الله عليه وعاينه وخاطبه ، ومن جاء بعد عصر الرسول بعشرة قرون . بل بعشرات القرون إن امتد عمر الإنسان فى هذه الأرض عشرات القرون ، ولقد حفظه منزله فى الأجيال كما نزل على محمد « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

فالناس فى كل الأجيال بعد محمد يرون معجزته رأى العيان ، كمن شاهدوا محمدا وخاطبوه ، وإن كان لهؤلاء الصحب الكرام فضل علم ، فهو مشتق من مشافهة النبي خطابه والتحدث عليه ، وهو مشرق الحق ومصدر العرفان وروح الهدى ونور الوجود .

وإذا كانت الأجيال كلها ترى تلك المعجزة وتفهمها ، فهى حجة الله القاطعة عليها ، فإن ضلت لا تضل عن جهالة ولا عن

نقص فى البينات ، ولا عن شك فى الأمر، بل عن عمى فى البصيرة وتحكم الهوى وسيطرة الأوهام .

٤ — ولقد تكلم العلماء قديما وحديثا فى موضع الإعجاز فى القرآن — معجزة النبي صلوات الله عليه وسلم الكبرى ، فمن قائل: إنه ما اشتمل عليه من قصص صادقة لم يعلمها النبي الأمين عن غير طريق الوحى ، أو لم يجلس إلى معلم ولم يتعلم، ولم يكن كثير الرحلة حتى ينال علم التجربة بالأسفار ، بل لم يتجاوز بطحاء مكة إلا مرتين : إحداهما فى الثانية عشرة ، والأخرى فى نحو الخامسة والعشرين ، فصدقها مع هذه الأمية دليل على أنها من عند الله » .

ومن قائل : « إن الإعجاز فى اشتماله على حقائق علمية كونية ، لم يصل إليها العقل البشرى إلا بعد قرون ، وقد جاءت فى القرآن على لسان نبي أمى لم يتعلم ، ولم يجلس إلى معلم كما بينا » .

ومن قائل : « إن ذلك الإعجاز فى أسلوب القرآن ونغمه ونسقه ، وعلى ذلك الأكثرون » .

وهو ما تومىء إليه عبارات القرآن الكريم ، فقد تحداهم أن يأتوا بعشر سور من مثله ولو مفتريات فعجزوا ، فكان أسلوب القرآن معجزاً لا ريب فى ذلك .

٥ — ونحن نرى إن كل ماذكره العلماء سببا لإعجاز القرآن هو

بلا ريب من أسبابه ، غير أن سبباً واحداً لم نر العلماء قد ذكروه، ونراه من أقوى الأسباب أو يعدل أقواها إن لم يكن أقواها جميعاً، وبه القرآن يكون معجزاً لكل الناس ، لا للعرب وحدهم ، ولا لجيل من الأجيال ، بل يكون معجزاً للأجيال كلها، ألا وهو شريعة القرآن ، فما اشتمل عليه القرآن من أحكام سواء ما كان منها يتعلق بالأسرة أو ما يتعلق بالمجتمع ، وما يتعلق بالعلاقة الدولية ، فريد فى بابه لم يسبقه شرع سابق ، ولم يلحق بما وصل إليه شرع لاحق ، وإذا ما كان ذلك كله قد جاء على لسان أمى لا يقرأ ولا يكتب ، لم يتعلم قط لا بالقلم والقرطاس، ولا بالتلقين والتوقيف ، ولا بالتجربة والأسفار ، إن ذلك هو الإعجاز الذى تتيه العقول فى تعرف سببه ، إلا أن يكون ذلك من عند الله العلى الحكيم ، وكذلك قال الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

٦ — هذ كلام إجمالى وهو يحتاج إلى بعض من البيان ، ولأجل أن نتبين قيمة ذلك الشرع فى ذاته ونظر الناس يجدر بنا أن نرجع إلى الماضى السحيق ونتطلع إلى المستقبل البعيد.

أما فى الماضى فنجد أن الشرع الذى اقترن بظهور محمد الرسول الأمين ، هو قانون الرومان ، فقد كان الشرع المسيطر فى التطبيقات العملية والقضائية فى مصر والشام وغيرها من البلدان التى تصاقب البلاد العربية وتحيط بها من الغرب والشمال ، ويقول علماء

القانون اليوم إنه من أكمل الشرائع التى تفتق عنها العقل البشرى ، ولا زال يعتبر أصلا لكثير من الشرائع القائمة ، انفرعت من أصوله وقامت على دعائمه .

وإن من يريد أن يعرف منزلة الشريعة الإسلامية وأنها فى درجة فوق مستوى العقل البشرى ، فليوازن بينها وبين القانون الرومانى ، لأن قانون الرومان قد استوى على سوقه ، وبلغ نهاية كماله فى عهد جوستنيان سنة ٥٣٣ بعد ميلاد المسيح عليه السلام ، وهو فى هذا الوقت كان صفوة القوانين السابقة ، وفيه علاج لعيوبها وسد لخللها من يوم أن أنشئت روما سنة ٧٤٤ قبل الميلاد، إلى سنة ٥٣٣ بعده ، أى أنه ثمرة تجارب قانونية لنحو ثلاثة عشر قرناً ظهرت فيها الفلسفة اليونانية ، وبلغت أوجها ، وقد استعانوا فى تلك التجارب القانونية بقوانين سولون لأثينا ، وقوانين ليكورغ لإسبارطة والنظم اليونانية عامة ، والمناهج النظامية والفلسفية التى فكر فيها الفلاسفة اليونان ، لبيان أمثل النظم التى يقوم عليها المجتمع الفاضل . كالذى جاء فى كتاب القانون وكتاب الجمهورية لأفلاطون ، وكتاب السياسة لأرسطو ، وغيرها من ثمرات عقول الفلاسفة والعلماء فى عهد اليونان والرومان .

وإن شئت فقل : إن القانون الرومانى هو خلاصة ما وصل

إليه العقل البشرى فى مدى ثلاثة عشر قرناً فى تنظيم الحقوق والواجبات ، فإذا وازنا بينه وبين ماجاء على لسان محمد النبى الأمى وأنتجت الموازنة أن العدل فيما قاله محمد ليس من صنع بشر ، إنه العليم الحكيم اللطيف الخبير سبحانه .

٧ — وفى أى جانب اخترت الموازنة بين ما اشتمل عليه القرآن وما اشتملت عليه الشرائع التى سبقته أو عاصرته بدا لك الفرق ما بين السمو الروحى ، والأخلاق الأرضية . فمن ناحية المساواة القانونية نجد الشريعة قد وصلت إلى أعلا درجاتها ، بينما القوانين التى عاصرتها لم تعترف بأصلها .

فالقرآن يقول : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » والشرائع التى سبقته وعاصرته لم تعرف تلك المساواة بين الأجناس والألوان ، بل لم تعرف المساواة بين آحاد الأمة الواحدة .

وبينما شريعة القرآن تخفف عقوبة الأرقاء فتجعل عقوبتهم نصف عقوبة الحر ، نجد قانون الرومان يضاعف عقوبة الضعفاء فالقرآن يقول فى الإماء : « فإذا أحصنّ فإن آتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب » وكذلك العبد إن أتى بفاحشة فعقوبته نصف الحر .

ولكن قانون الرومان يقول : « ومن يستهوى أرملة مستقيمة

أو عذراء فعقوبته إن كان من بيئة كريمةمصادرة نصف ماله ،وإن كان من بيئة ذميمة فعقوبته الجلد والنفى من الأرض .

وإن النظر العادل يقر بالبداهة نظر شريعة القرآن لأن العقوبات يجب أن تسير بنسبة تصاعدية مع الأشخاص لا بنسبة عكسية ، فتكبر جريمة الكبير وتصغر عقوبةالصغير. .

لأنه إذا هانت النفس على صاحبها سهل عليه الوقوع فى الجرائم ، فكان التخفيف ، وإذا كبرت قيمة الرجل فى أعين الناس كانت عليه تبعات بمقدار عظمته ، وكانت صغائره كبائر ، وتضاعفت العقوبة ، فالجاه والثروة وغيرهما ليست متعاً خالصة خالية من تبعات بل عليها تبعات بقدرها .

وإن القوانين التى تسير عكسا لا طرداً ،كالقانون الرومانى ، قوانين ظالمة ،كيف ؟ لأنها تستمد منطقها من القوه الغالبة ،فكلما كان الشخص من ذوى الجاه ضعفت عقوبته ، وكلما كان من الضعفاء زادت من عقوبته ، فهو يحمى الشريف ولا يحمى الضعيف، وقد سمى القرآن ذلك حكم الجاهلية ، ولذا قال الله فى حق اليهود عندما طلبوا أن يحكم النبى على الشريف الزانى بغير العقوبة المقررة: « أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ؟

ولقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه . وإذا سرق الضعيف

قطعوه ، وأيم الله ، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها .

٨ — ولقد كان الضعيف مأكولا ضائعاً والفقير يائسا جائعاً ، حتى جاء الإسلام فشرع قانون الزكاة ، وجعلها حقاً معلوماً فى مال الغنى ، لا يخلص له إلا بعد إعطائها ، حتى لقد قال الشافعى رضى الله عنه : « إن الغنى إذا وجبت الزكاة فى مال معين له ، كان غير مالك للجزء الذى يقابلها ، ولذلك إذا تصرف فيه من غير إخراجها يكون تصرفه باطلا ، وإذا مات من غير أن يؤدى ما وجب عليه من زكاة أخذت من تركته ، وقدمت على سائر الديون عند الشافعى رضى الله عنه . !

* * *

ولم يعتبر الإسلام الزكاة إحساناً مذلاً ، بل أوجبها على الأغنياء يقبضها ولى الأمر بالنيابة على الفقراء ، ويوزعها عليهم بمقدار حاجته ، ولقد هم عمر رضى الله عنه عام وفاته أن يمر على الأقاليم بنفسه ليوزع على الفقراء حقوقهم فى بيت المال غير الزكاة كل له عطاء بمقدار بلائه وعنائه فى الإسلام .

٩ — وبينما كان قانون الرومان فى بعض أدواره يجعل الدائن يسترق المدين إن عجز عن الوفاء ، كان القرآن الذى نطق به النبى

الأمى وقد نزل عليه من عند الله يقرر : أن الحكومة تسدد ديون المدينين الذين يعجزون عن الوفاء بديونهم ، إذ لم تكن الاستدانة سرفا ، بل يكون على ولى الأمر سداد الديون التى يستدنيها ذوو المروءات للمقاصد الاجتماعية كالصلح بين الناس ، فتسدد من بيت المال ، ولو كان المدينون غير عاجزين عجزاً كليا عن سدادها .

ويؤدى هذا كله من مال الزكاة كما نص القرآن الكريم .

إنى أحسب أن هذه مثل عليا لم يصل إليها بعد قانون من قوانين البشر ، فإذا كان الذى جاء بهذا رجلا أمياً لا يقرأ ولا يكتب ولم يتعلم قط ، ألا يكون هذا دليلا على أن ما جاء به من عند الله العلى القدير ؟ .

١٠ — ولقد كان الرق حقيقة مقررة ثابتة أقر فلاسفة اليونان نظامه ، واعتبروه نظاماً عاماً عادلا ، لاظلم فيه ، ولم تستنكره شريعة من الشرائع قط ، وقرر أرسطو أن الرق نظام الفطرة لأن من الناس ناساً لا يمكن أن يعيشوا إلا أرقاء ، وآخرين لا يكونون إلا أحراراً . . !

فجاء النبى الأمى وقال : « الناس سواسية كأسنان المشط » وقال : « كلكم لآدم وآدم من تراب » ولم يسجل القرآن الرق فى محكم آياته بل سجل العتق ، فلم يرد فى القرآن نص قط يبيح الرق ، بل نصوصه كلها توجب العتق ، حتى إنه فى حرب الإسلام العادلة

لم يذكر القرآن رق الأسرى، بل قال: « حتى إذا أثخنتموهم فشدُّوا الوثاق ، فإما مَنًّا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها » فلم يذكر فى الأسرى إلا المن عليهم بإطلاقهم أو فدائهم بالمال ، إن كان فى قومهم قدره على الفداء، ولقد وسع القرآن فى أسباب العتق وفتح باب الحرية الإنسانية على مصراعيه، اعتبروه قربة ولو كان الرقيق غير مسلم ، فقال : « فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة فكُّ رقبة » وأوجب على من يفطر فى رمضان عامداً من غير عذر عتق رقبة ، ومن يحلف ويحنث عتق رقبة ، ومن يجرى على لسانه عبارة لامرأته يشبهها بأمه عليه عتق رقبة ، ومن يقتل مؤمناً خطأ عليه عتق رقبة ، وإذا طلب العبد عتقه فى نظير أن يؤدى ثمنه مثلا — كاتبه مولاه على ذلك ، وتركه ليكسب ثمنه ، ومن ملك بعض محارمه عتق عليه ، ومن ضرب عبده ظلما فكفارته عتقه. وهكذا تعددت أسباب العتق حتى أنها لو نفذت كلها لا يبقى رقيق فى دار الإسلام أكثر من سنة واحدة .

كل هذا فى زمن أهملت فيه حقوق الإنسان ، فإذا كان هذا بعض ما اشتمل عليه القرآن ، ألا يكون دليلا على أنه من عند الرحمن ؟

* * *

مـــوازنة

إن ما اشتمل القرآن عليه من أحكام إذا ووزن بما كان عليه الناس وقت نزول القرآن ، كان وحده دليلا على أن القرآن من عندالله ، بل إن أحكامه لاتزال جديدة إذا ووزنت بما عليه الناس اليوم ، إذ بالموازنة يتبين أنها سبقت سبقاً بعيداً ، وأن الناس مهما تتفتق عقولهم عن شرائع قد وصلوا إليها بتجارب قضائية ، وتجارب عملية ، وبالاستعانة بثمرات العقول وما أنتجته الفلسفة والعلم ، فلن يصلوا إلى ماجاء على لسان النبي الأمي محمد صلى الله عليه وسلم لأن عمل الإنسان مهما تكن قدرته ناقص ، وفي أي جانب اخترت للموازنة تنتهي بالحكم الجازم بسبق النبي ، وعدم بلوغ أحد ما قرره وثبته منذ ثلاثة عشر قرنا إلا أن يقتبسوا من نوره ، ويأخذوا من هديه ، وينهلوا من معينه ، ففيه الحكمة وفصل الخطاب .

ولنختر الموازنة في بعض أحكام الأسرة ، فإن أحكام الأسرة التي اشتمل عليها القرآن وبينها النبي موضع هجوم المهاجمين ، وهدف لسهام النقد وسنبين أن تلك السهام مردودة في نحورهم ، وسنلوي مقدم الدليل الذي ساقوه على نتيجتهم ونبين منه للباحث المنصف أن أحكام الأسرة في القرآن دليل إعجازه ، وأن العقل البشري لم يصل إلى مايقاربها .

لقد عابوا على شريعة القرآن . إباحتها الطلاق . . وإباحتها تعدد الزوجات . . وشنعوا فى المحلل وهو ليس من القرآن فى شىء . وقد ثارت عجاجة هـذه المسائل فى آخر القرن الماضى ، وصدر هذا القرن ، وخاضت فيها الأقلام ، وأخذ الذين يحاولون تقريب الإسـلام من شرائع الغرب يقترحون وضع القيود أمام التعـــدد ، بل استرسلوا فأرادوا وضع القيود أمام الطلاق ، وعقوبة المطلقين بالزج فى غياهب السجن .

إن التاريخ كتاب العبر وسفر المعتبر ، يرينا أن الهجوم على الإسلام من ناحية الطلاق وتعدد الزوجات وما يتصل بذلك ، ليس وليد ذلك العصر ، بل إنه يتغلغل فى القدم إلى العصر الأموى ، وإذا رجعنـا إلى الوراء نتعرف المصـدر الذى كان يبث ذلك ، وجدنا رجلا اسمه يوحنا الدمشقى ، كان فى خدمة الأمويين هو وأبوه ، واستمر فى خدمتهم إلى عهد هشام بن عبد الملك ـــ كان يؤلمه أن يدخل النصارى فى الإسلام أفواجاً أفواجاً ، فكان يجتهد فى أن يسلح النصارى باعتراضات يعترضون بهـا على الإسلام ، ليشككوا العربى المسلم فى دينـه ، وليقووا حجة النصرانى ، فيستطيع التغلب على العربى .

وقد جاء فى كتاب « تراث الإسلام » عن يوحنا هذا أنه كان

يقول : « إذا سألك العربى ماتقول فى المسيح ؟ فقل : إنه كلمة الله ، ثم ليسأل النصرانى المسلم بم سمى المسيح فى القرآن ، وليرفض أن يتكلم فى شىء حتى يجيب المسلم فإنه سيضطر إلى أن يقول : إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه » فإذا أجاب بذلك فاسأله عن كلمة الله وروحه : أمخلوقة أم غير مخلوقة ؟ فإن قال مخلوقة ، فليرد عليه بأنه كان ولم تكن له كلمة ، ولا روح ، فإن قلت ذلك ، فسيقحم العربى ، لأن من يرى هذا الرأى زنديق فى نظر المسلمين . .

ومع هذا التلقين الذى يحاول به التشكيك فى العقيدة ، كان يلقنهم أيضاً أن يتكلموا فى تعدد الزوجات ، وفى إباحة الطلاق ، ثم يثير فيهم أكاذيب حول النبى صلى الله عليه وسلم ، فيخترع قصة عشق النبى لزينب بنت جحش ، التى كانت وليدة عقل ذلك الكاذب الأفاق .

ولقد كان جزاء ذلك الصنيع عند النصارى أن اعتبروا صاحبه قديساً ، وإذا كان الاعتراض على الإسلام متحداً بين يوحنا وأهل ذلك العصر ، فلابد أن يكون المصدر واحداً ، ولكننا لا نتبع الأصول لنعرف الفروع ، ولا نتبع الجذور لنعرف نوع الثمار ، بل إننا قد اعترانا نوع من الضعف النفسى عند بعض الذين يسمون الخاصة ، فحسبوا أن كل ما عند

الأوربيين سائغ فرات ، وكل ما عندنا ملح أجاج ، وليسوا فى حاجة إلى دس أمثال يوحنا الدمشقى ، بل إنه يكفى أن يكون الأوربيون لا تسيغ شريعتهم التعدد حتى يكون ذلك المنع سائغاً مقبولا ، وحتى يكون ما عند المسلمين مقيتاً مرذولا . .

وهكذا يفعل الاستخذاء فى نفوس الضعفاء يستقبحون كل ما بأيديهم ويستحسنون كل ما بأيدى الأقوياء .

* * *

ونحن إذا حاولنا أن نبين فضل الشريعة فى الزواج والطلاق ، فإنا لا نرد على المسلمين الذين رددوا تلك الأقوال عن غير بينة ، بل إنا نرد على الذين أثاروها بين المسلمين ، ولم يجدوا مرتعاً خصيباً من أقدم العصور إلا فى أذهان رجال فى عصرنا ، ونحن نتكلم فى هذه الأمور الثلاثة : قصة زيد وزينب ونظام التبنى والنسب ، وتعدد الزوجات ، والطلاق .

ونبدأ بقصة زيد وزينب والتبنى لأن كثيرين خدعوا بالكذب الذى أثير حولها ، ووجدنا فى مصر كاتباً كبيراً كتب فى السيرة ، وجعل لها عنواناً قائماً بذاته ، سماه عشق النبى ، وبعض كتب التفسير راج فيها ذلك العرس الخبيث ، ولأن إثارة القول فى هذه القصة يجرنا إلى الكلام فى خاصة اختصت بها الشريعة